حكايات نحبها جميعاً

(٣)

وبشّرها ببيتٍ في الجنّة

الدكتور

محمد عمر الحاجي

رسوم : إياد عيساوي

الطبعة الأولى
2006 - 1426

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق .

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

سورية ـ دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا
ص.ب ٣١٤٢٦ ـ هاتف : ٢٢٤٨٤٣٣ ـ فاكس : ٢٢٤٨٤٣٢
e-mail: almaktabi@mail.sy

في ظِلَالِ الأحادِيثِ النّبويّة

أَخَذتْ (أُمُّ نُورِي) عَلىٰ نَفْسِهَا عَهْداً أَنْ تَقْرأَ فِي كُلِّ صَباحٍ خَمْسَةً من أَحادِيثِ المُصْطَفَى ﷺ وقد التزمَتْ بأَحاديثِ صَحيحِ الإمَامِ البُخَارِيِّ...

وَفِي صَبِيحةِ يَوْمِ الإثنين ، قرأَتْ حَدِيْثاً نَبوياً رَائِعاً ، يَقُول فيهِ رسولُ الله ﷺ: «أَتانِي جِبريلُ عليهِ السَّلامُ فقالَ: يا رَسُولَ اللهِ! هَذِهِ خَديجَةُ أَتتكَ مَعَها إناءٌ فِيهِ إدامُ طَعَام أو شَراب ، فَإذا هِيَ أَتتكَ فَاقْرَأْ عَليها السَّلامَ مِنْ رَبِّها ، وبَشِّرها بِبَيْتٍ فِي الجَنَّةِ ، مِنْ قَصَبٍ لا صَخَبَ فيهِ وَلا نَصَب».

وَضعَتِ الكِتَابَ أَمَامَها وراحَتْ تُفكِّرُ وتَتسَاءلُ: ما هُوَ العَمَلُ الذي قَامَتْ بهِ السَّيِّدةُ خَديجَةُ حتَّى نَالَتْ هذهِ المَكانَةَ السّاميةَ؟

وَماذا عَنِ سلامِ اللهِ لَها.. ثُمَّ عن البشَارَةِ لهَا بِدُخول الجنَّةِ ، حيثُ إِنَّ اللهَ تَعالى بَنىٰ لها قصْراً لا ضَوضاءَ فيهِ وَلا تَعب..

وَفجأَةً دَخلتِ ابنتُها (نَاهدٌ) إلى الغُرفَةِ ، وعَلىٰ الفَورِ لاحَظتْ أنَّ أَمراً ما يَشْغَلُ بالَ أُمِّهَا ، فَتقَاسِيمُ وَجه والدَتِها تُوحِي بالتّفكير الشَّديدِ وَالتَّأَمّلِ.. ، لذلكَ حَاولتْ (ناهدٌ) أَنْ تَسْتفسرَ مِنْ وَالدتِهَا عن ذَلِكَ.

وَكانَ جَوابُ (أُمُّ نوري): إِنَّني أُفَكِّرُ فِي المَرتبةِ العُليَا التي نَالَتها السَّيدةُ خَدِيجةُ ، فَقالتْ (نَاهدٌ) وَبِحَماسٍ ظاهرٍ: عِندي اقْتِراحٌ.

فَقالَتْ والِدَتُها: هَاتِ ما عندكِ يا بُنَيَّتي، فَعَسَىٰ أَنْ نَسْتَفِيْدَ من اقتِراحِكِ.

فَأخرجَتْ (ناهِدٌ) من جَيْبِهَا دَفتراً صَغِيراً، وكتبتْ عَليهِ وَهِيَ تَقرأُ بِصَوْتٍ مُرتَفِعٍ:

لا بدَّ من البَحثِ عَنْ تَرجمةٍ وَافيةٍ للسَّيدةِ خَدِيْجَةَ.

فَرحَّبتْ والدتُها بذلكَ، وطلبتْ مِنَها إعدادَ تِلكَ التَّرجمةِ بأَسرعِ وَقْتٍ مُمْكنٍ..

معَ الطَّاهِرَةِ الحَسيبةِ

وَبالفِعْلِ، انطَلَقَتْ (ناهدٌ) إلى المَكْتَبَةِ التَّاريخيَّةِ، وراحتْ تَبحثُ عَنْ مَصادرَ وَمراجِعَ تَتحدَّثُ عن السَّيدة خَدِيجة.

وَقَرَأتْ كثيراً عَنْها ، واسْتَطاعَتِ اخْتِصارَ ذلكَ بمَا يَلي:

فِي بَطْحاءِ مكَّةَ المكرَّمةَ كانَ مِيلادُها.. ، وتربَّتْ تَربيةً فاضلةً ، حتَّى علا نَجْمُهَا وسَطعَ فلقّبتْ بالطَّاهرةِ الشَّريفةِ ، وذلك لاتّصافها بالعِفَّةِ والشّرفِ ، وبُعدهَا عن مَجالسِ الشَّراب والخَنا ـ وهي المجالسُ السَّيئة الَّتي يُرتكبُ فِيهَا الزَّنى ونحو ذلك ـ

ولمَّا كَبُرتْ تَزوَّجها أَبو هالَةَ بن زُرارَة التَّميميُّ ، ولمَّا ماتَ تزوَّجهَا عَتيقُ بنُ عَائِذٍ المَخزُوميُّ.

وكانَ لها تِجَارةٌ واسعةٌ ، حيثُ كانَ يَعملُ عندهَا عَددٌ كبيرٌ مِنَ الرِّجالِ ، عَلىٰ قَدرٍ مُعيّنٍ مِنَ الأموالِ تَدفَعُهُ لَهُمْ.

وَكانَ تعامُلُهَا الحَسَنُ مَعَ النَّاسِ يزيدُ مِنْ أَرصدَتِها ، وَيحبّبُ النَّاسَ إِلها ، حتّى إِنَّ كثيراً منْ شَبابِ قُريشٍ تقدَّمَ لخطبتهَا.

لكنَّ الله تعالى أَرادَ أَمراً آخر ، فَذاتَ مَساءٍ نَقلَ إليهَا غُلامُها (مَيسَرة) خَبرَ شابٍّ أمينٍ مِنْ شُبَّان مكَّةَ المُكرَّمةِ ، واقترحَ عليها أَنْ تَسْتأجِرَهُ ليتاجِرَ لها..

وَفعلاً حدثَ ما أرادَ (مَيْسَرةُ) ولمّا دخلَ النَّبيُّ ﷺ عليها قالَتْ:

إِنَّهُ دعانِي إلى البِعثةِ إِليكَ ما بَلغني من صِدْقِ حديثكَ وعِظَمِ أمانَتِكَ وَكَرَمِ أخلاقكَ ، وأَنا أُعطيكَ ضِعْفَ ما أُعطِي رَجُلاً مِنْ قومِكَ.

فَقَبِلَ الرَّسُولُ صلواتُ اللهِ عليهِ اقتراحَها ،

واتَّفقا على أَنْ يكونَ المَوعِدُ الأوَّلُ يومَ كذا وَكَذا..

إنّها إرادَةُ اللهِ سُبحانَهُ!!

وَفِي اليوم الثَّاني سافَرَ الرَّسولُ ﷺ بتجارةٍ لها إلىٰ بِلادِ الشَّامِ ، وَصحبَهُ في تِلكَ الرِّحلةِ (مَيْسرةُ).

وشاءَ اللهُ سُبحانَهُ أَنْ تَكُونَ رِحلةً موفَّقةً ، حيثُ كانَ الرّبحُ ضِعْفَ ما كانَ عليهِ في السّابقِ.. ، ولمّا انتهىٰ من البَيعِ وَالشِّراءِ ، عادَ إلىٰ بَلَدِهِ مَكَّةَ... ، فَمَا كانَ مِنْ (مَيسرة) إلاّ أَنْ ذهبَ إلى سيِّدتهِ ، وراحَ يحدِّثها عن كَرمِ أخلاقِ ذاكَ الشّابِّ الوَسِيمِ ، وعَنْ صُحبتهِ وعِظَم أَمانتهِ.

وَفِي تِلكَ الأثناءِ دَخلتْ عَليها صَدِيْقَتُها (نَفيسَة بنت منيَة) ، ولمّا سَمِعَتْ طَرفَ حَديثِ (مَيسرة) ، توجَّهتْ إلىٰ خَديجَةَ وَسألَتْها: عَن (اسمِ الشَّاب) ، فأجابتها: إنَّهُ مُحمَّدُ بن عبد اللهِ ابن عبدِ المطلبِ...

فانطَلقَتْ (نَفِيْسَةُ) إلى الرَّسولِ وكلَّمتهُ أَنْ يتزوَّجَ الطّاهرةَ خَدِيجةَ.. وتمَّ ذلكَ بالفعلِ.

وَفِي لَيْلَةِ الزَّواجِ وَقفَ عَمُّهُ أَبو طالبٍ وقالَ: .. الحَمْدُ للهِ الذي جَعلنا مِنْ ذُرِّيَّةِ إبراهيم وزَرْعِ إسماعيل ، ... وهَذا ابنُ أَخِي محمَّد بن عبدِ الله ، لا يُوزنُ به رَجلٌ من قُريشٍ ، شَرَفاً وَنُبلاً وَفَضلاً إلاّ رجحَ به... ، ولهُ فِي خَدِيجةَ رغبةٌ ، ولهَا فيه مِثلُ ذلكَ ، وما أحببتُمْ من المَهرِ فَعليَّ..

وكانَ زَواجاً ناجحاً ، على الرَّغمِ مِنْ أَنَّ عمرَهُ

لم يَتجاوز الخَامسةَ وَالعِشرينَ ، وعُمرها اكتملَ على الأَربعِين!

وَرزقهُ اللهُ منهَا الأولاد: القَاسِم ، وعبد الله ، وزَينَب ورقيَّة وفَاطِمَةَ وأمّ كُلثوم.. رضيَ اللهُ عَنْهُمْ أَجمَعين..

مِنْ بَيتها سَطعَ النُّورُ..

ولمَّا شاءَ اللهُ للنّاسِ الهدايةَ ، أَرسلَ أَمينَ الوَحيِ بِرسالةِ الإِسلامِ ، ليكونَ خاتمَ الأنبيَاءِ هوَ مُحمَّد بن عبد اللهِ صلواتُ اللهِ عَليهِ.

وَفِي غَارِ حِراءَ كَانتِ البِدايَةُ.. ، وعادَ الرّسولُ إلىٰ بيتِ زَوجتهِ خائِفاً مَذْعُوراً وهوَ يقولُ: زَمِّلوني ، زَمِّلونِي.

فَقَالَتِ الزَّوجةُ العَاقِلَةُ: كلا ، وَاللهِ

ما يُحْزِنُكَ اللهُ أَبداً ، إِنَّكَ لتَصِلُ الرَّحِمَ ، وتَحْمِلُ الكَـلَّ ، وتكسـبُ المعـدومَ ، وتقْـرِي الضَّيْـفَ ، وتُعِينُ عَلىٰ نَوائِبِ الحَقِّ.. ثمَّ انطلقَتْ إلى ابن عمِّها (وَرقةَ بن نَوفَل) ـ وكانَ يعرفُ الكَثِيرَ من أُمورِ السَّابقين ـ فأَتَتْ بِهِ ، وسمعَ من الرَّسولِ ماذا جَرَىٰ مَعه.

فَأَطْرَقَ (وَرقةُ) مَلياً ثُمَّ قالَ: هَذا النَّاموسُ الَّذي نَزَّلَ اللهُ على مُوسىٰ ، يا ليتنِي فيهَا جَذعاً ـ قوياً ـ ليتني أَكُونُ حيّاً إِذْ يُخرجكَ قَوْمُكَ.

فقالَ النَّبيُّ صلواتُ اللهِ عَليهِ: أَوَ مُخرِجيَّ هُمْ؟

قالَ: نَعَمْ ، لَمْ يَأتِ رَجُلٌ قَطّ بِمِثلِ ما جِئتَ بِهِ إِلاّ عُودِي ، وَإِنْ يُدركنِي يومكَ أَنصُرْكَ نَصراً مُؤزَّراً.

أَجَلْ!

لَقدْ أَصبحَ بَيْتُهَا مَركزَ إشعاعٍ عَظيمٍ ، فكانَتْ أوَّلَ من آمنتْ مِنَ النِّساءِ ، وكان أَولادُها أَوَّلَ آمنَ مِنَ الأطفالِ ، وَكانَ مولاهَا (زَيدٌ) أَوَّلَ من أسلمَ مِنَ المَوالِي... وقدَّمتْ في سَبيل نُصْرَةِ الدَّعوةِ كلّ ما تملكُ.

وعَانَتِ الكَثِيرَ في سَبِيلِ الدِّفاعِ عَنِ الرّسولِ ﷺ ورَضيَ اللهُ عَنْها وَأَرضاهَا.

مِنْ مَناقِبِ السَّيِّدَةِ خَدِيجةَ رَضِيَ اللهُ عَنْها

قالَ فيها رَسُولُ اللهِ ﷺ:

«كَمُلَ منَ الرِّجالِ كَثيرٌ ، ولم يَكملْ مِنَ النِّساءِ إلاَّ ثَلاثٌ: مَريمُ بنت عِمران ، وآسيةُ امرأَة فِرعَون ، وخديجةُ بنت خُوَيلد».

... ومن المُوافَقاتِ اللَّطيفةِ التي جَمَعَتِ الثَّلاثَ فِي نَسَقٍ واحدٍ أَنَّ كُلَّ واحدةٍ مِنْهُنَّ كَفلتْ نَبِيّاً مُرْسَلاً ، وأَحسْنَتْ صُحبتَهُ وآمنتْ بهِ ، فآسيةُ ربَّتْ مُوسىٰ عليه السَّلام ، وأحسنَتْ إليهِ ، وصدَّقت به حينَ بُعثَ ، ومريمُ كَفِلَتْ عِيسىٰ عليهِ السّلامُ وربَّتهُ ، وصدَّقتْ بهِ حينَ أُرْسِلَ ، وخَديجةُ رَغِبتْ في النَّبي ﷺ وواسَتْهُ بنفسِهَا ومالِهَا ، وأحسنتْ صُحْبَتَهُ ، وكانتْ أَوَّلَ من صَدَّقهُ حين نَزلَ عليهِ الوَحْيُ...

وَيكْفِيها منقبةً رائعةً ، هيَ أَنَّ الرَّسولَ ﷺ لمْ يتزوَّجْ امرأةً قَبْلَها ، وَرُزقَ منهَا الوَلدَ..

بَلْ وَكانَ صَلواتُ اللهِ عَليهِ يُصرِّحُ ـ حتّى بَعدَ موتِهَا ـ وَأمامَ ضَرائِرِهَا ، يُصرِّحُ بِمَدىٰ حُبّه لهَا!

فبُعَيْدَ حِصَارِ شِعْبِ أَبي طَالبٍ ، وقبلَ

الهِجرَةِ بِثَلاثِ سَنواتٍ ، تُوفِّيتِ السَّيدةُ خَديجَةُ وَكان لهَا مِنَ العُمرِ خَمسٌ وَستُّونَ سنَة.

فَنَزلَ الرَّسولُ ﷺ في قَبرهَا ، وَأَنْزلَها بيديهِ الشَّريفتَينِ.. وكانَتْ عيناهُ تَسيلانِ بالدُّموعِ.

أَجلْ! لقدْ عَاشَتْ معهُ زُهاءَ خَمس وعِشرينَ سَنَة ، لم تسمعْ منهُ كَلمةً نابيةً ، ولمْ يَرَ منهَا إلاّ ما يُرضيهِ عنهَا.

وَكيفَ لا يَحزنُ عليهَا وهيَ: أَوَّلُ من صَلّى معه.

وَأَولُ مَنْ رُزِقَ منهَا الأولاد.

وأَوَّلُ مَنْ أَقرأَها ربّها السَّلام.

وَأَوَّلُ صدِّيقةٍ من المُؤمنات.

وأَوَّلُ من بَشَّرها بالجنَّةِ.

وأَوَّلُ زوجاتِ النَّبي ﷺ وفَاةً؟!

وَفِـي المُسنـد لـلإمـامِ أَحمـدَ هَـذهِ القصَّـةُ الرّائعةُ:

قَالَتِ السَّيدةُ عائِشَةُ رضيَ اللهُ عَنها: كانَ رسولُ الله ﷺ لا يكادُ يخرجُ مِنَ البَيْتِ حتّى يذكرَ خَديجَة فيحسِن الثَّناءَ عَليها ، فذكرَها يوماً مِنَ الأيَّام ، فأخذتنِي الغَيْرَةُ ، فقلتُ: هَلْ كَانَتْ إلاّ عَجُوزاً ، قد أَبْدَلَكَ اللهُ خَيْراً مِنْهَا؟

فَغَضِبَ ثُمّ قالَ: «واللهِ ما أَبدَلَنِي خَيراً منهَا ، آمنتْ بِي إذْ كَفَرَ النَّاسُ ، وصدَّقتني إذْ كَذَّبَنِي النَّاسُ ، وَواسَتْنِي بمالِهَا إذ حَرَمَني النّاسُ ، ورزقَنِي اللهُ مِنْهَا الولدَ دونَ غيرها».

فَقُلتُ فِي نفسِي: فلا أذكرهَا بِسبّةٍ أَبداً.

... وفي آخرِ الحِكايَةِ خطَّتْ (ناهدٌ) قَولَ اللهِ تَعالى بِخَطٍّ كوفيٍّ مُميَّزٍ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ

ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة: ٧ ـ ٨] .

وَآخرُ دَعوانا أَنِ الحَمدُ للهِ ربِّ العالمينَ